الإهداء

إلي حبة القلب الحبيب (عمر) الرجولة في أقوي تمثلاتها

إلى إنسان العين الحبيب (صهيب) فك الله كربه وجمع شمله وعوضه وحفظه

إلي الحبيب (محمد) الصبي الرجل ..

إالي زهرة البيت وحمامته وضحكته الدائمة (تقي) ..

إلى الحبيبة .. الزوجة .. والأخت .. المؤمنة (أم عمر) ....

أحبكم وأشكر لكم إحساناتكم .

المحب مصطفى

2015 /11 /2

obeikandl.com

تقديم
رقصة الأفعى
قراءة في: تقنيات الخطاب
في مدونة الشعر المصري الحديث في الرمز الأمريكي

أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مدخل

لقد ظل الشعر في الفعل العربي علم قوم لم يكن لهم أعلم منه، كما أثر عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنها.

وهو الأمر الذي فجر سؤالًا جوهريًّا يتعلق بقدرة الشعر على تغيير العالم، إن براكين الغضب، وأنهار القبة تتخلق أولًا في مخيلة الشعراء.

وهذا المبدأ النقدي يعيد تقدير الترابط العضوي بين القضية الفكرية والتقنية الفنية. وهو وعي جديد يتلمس طريقة نحو النور على يد نفر من الدارسين النقاد، ربما بتأثير الفرار من سطوة النظرية النقدية الغربية.

ومن ثم، فإن ظهور دراسات تتأسس على هذا الوعي الجامع بين الفكرية والتنقيب أمر يثير الإعجاب، ويبعث على الأمل في تعافي الكتابات الأدبية المعاصرة بعد أن عزفت في آبار الوفاء للشكل، والعذر بالمضمون!

1 – الكتاب: مادته، وانتماؤه المعرفي.

إن هذا الكتاب الذي ينطلق في معالجة للرمز الأمريكي في مدونة الشعر المصري الحديث موضوعيًّا وفنيًّا محكوم في حركته بإدراك الثنائية المشخصة لجوهر البناء الشعري.

(2/ 1) وقد جاءت مباحثة كما يلي:

أولًا: الماهية أو مادة الكتاب

وبيلوجرافيا الشعر المصري الحديث في الرمز الأمريكي، قصائد/ دواوين) التيارات الحاكمة للمدونة: تيار لمس الرقيق/ تيار المواجهة أو العتاب العنيف، القواسم المشتركة لموضوعات المعرفة:

– الإمساك باللحظة التاريخية.

– وضوح البعد الإنساني تسامحًا.

– حضور الدين

2 – فن التقنيات الشعرية في خطاب الآخر الأمريكي، (التكرار/ المقابلة/ المفارقة/ النفي/ الأساليب الإنشائية/ التناحي/ الصورة/ الإيقاع)

إن فحص مادة العقاب وهيكله كاشف عن هذا الوعي معًا في تشكيل العمل الشعري، وكاشف عن أن الدراسة الخلاقة القادرة على استثمار النصوص الإبداعية من أجل بهجة العقل ومتعة الروح معًا عليها أن تنتصر لثنائية العمل الشعري، بموضوعه وجسمه المادي المتمثل في تشكيله اللغوي والجمالي.

وهي العناية التي تعطف على النص الأدبي، وتحله محله المعتبر بعناصر تكوينه جميعًا من غير غدر موعد من عناصر تكوينه المشكلة لماهيته وكينونته.

لقد أثبتت هذه المعالجة أن النص يوشك أن يكون إنسانًا تجب رعايته من أطرافه جميعًا، موضوعه، وبنائه المادي.

(2/ 2) **أما من جهة الانتماء المعرفي لهذا الكتاب**، فهو عصب الانتماء، صالح لأن تتجاذبه حقول معرفية كثيرة. وفي ما يلي أهم هذه الانتماءات المعرفية التى يمكن أن يندرج تحتها هذا الكتاب:-

أولًا: النقد الأدبي:

إن أول حقل يتبنى هذا الكتاب هو حقل النقد الأدبي؛ ذلك أنه يتناول قضية فكرية/ قيمة مضفرة بفحص تقنيات الخطاب الشعري الفنية.

إن الدراسة الأدبية لهذه القضية الفكرية التي تتجلى في مدونة الشعر المصري من منظور يرعى حركة الفكر وتنوعاته وآخره الفلسفة التي تحكمه والتيارات التي فسر بأصوات الشاغرة، في توافقاتها وتقاطعاتها، غير متجاهلة للطاقات الفنية وتقنيات بناء النصوص الشعرية تبعًا للتجليات الفكرية الحاكمة لمسارات الشعراء المصريين المعاصرين.

ثانيًا: الأسلوبية الأدبية:

لقد تذرع الدكتور مصطفى أبو طاحون في معالجة الموضوع هذا الكتاب بعدد كبير من نتاج الدرس الأسلوبي، الوريث المعاصر للبلاغة العربية التقليدية كما يحلو لعدد من الدارسين المعاصرين أن يجروا القلم بوصفه.

لقد نهض استثمار تقنيات التكرار والمقابلة وفحص الأساليب الإنشائية بواجب يعتبر من استحضار الأسلوبية في خدمة التحليل الفني لنصوص هذه القضية الفكرية، وهو ما يجعل هذا الكتاب نموذجًا مصغرًا للدراسات الأسلوبية التطبيقية من منظور ظاهر.

ثالثًا: الرأي العام:

لقد كان تتبع هذا الكتاب للأصوات الشعرية المعاصرة في مصر الحديثة من لون أحمد شوقي وأحمد محرم إلى يوم الناس هذا، ودراسة تجليات الرمز الأمريكي في قصائدهم وأشعارهم ودواوينهم بمثابة استطلاع للرأي العام في أوساط فريق

من النخبة المثقفة المصرية على امتداد عقود متتالية تجاه قضية محورية في السياسة المصرية والعربية معًا تجاه رمز يتجلى مفردًا بامتياز في المخيلة المثقفة المنتمية تعلن تألمها، واستياءها ونفورها منه على الدوام.

وهو ما يمكن أن يجعل من هذا الكتاب مثالًا لدراسات الرأي العام من الدرجة الثانية.

رابعًا: التاريخ والسياسة:

ومن جانب آخر فإن تحليل القواسم المشتركة لتجليات الرمز الأمريكي في الشعر المصري المعاصر كاشف عن وعي وحضور للحدث التاريخي والسياسي معًا في الشعر المصري المعاصر، بما يجعل الشعر قادرًا على تجاوز المجتمع فقط إلى موانئ المتعة العقلية والفكرية كذلك.

لقد أعاد هذا الكتاب الثقة في العلاقة العضوية بين التاريخ والشعر، وأعاد التذكير بالقاعدة القديمة التي كانت ترى في الشعر ديوان العرب!

إن أهمية هذا الكتاب المعلنة تظهر من برهنته على أن الأشغال بالقضية الوطنية الحقيقية، والوفاء للمسألة المصرية قادر على القضاء على التجاذبات المريضة للأيديولوجيات. وهو ما يعطي مثالًا ممتازًا إلا وكان تحقق صناعة التوافق بين أطياف النخبة المثقفة المصرية الوطنية جميعًا.

لقد صدع أحمد شوقي وأحمد محرم وعبد الرحمن الشرقاوي وجابر قميحة وفاروق جويدة وأحمد تيمور ووحيد الدهشان بقواسم مشتركة كثيرة على الرغم من تباينات اتجاهات هؤلاء الشعراء الفكرية والنفسية.

إن فحيح الأفعى صنع توافقًا عند اشتعال وهج المسألة الوطنية في النفوس، وهو ما استطاع الدكتور مصطفى أبو طاحون أن يعالجه بامتياز في هذه الدراسة.

3 – الرمز الأمريكي: مقالة في خطاب المصادر

يمثل تحليل خطاب المصادر في أي دراسة خيطًا كاشفًا عن أشياء كثيفة قيِّمة

جدًّا في الترجمة عن جهد الدارس وذكائه النقدي معًا.

والتوقف أمام مصادر هذه الدراسة كاشف عن مجموعة قيمة جدًّا من خصائص عمل الدكتور مصطفى أبو طاحون وهو ما يمكن أن نجمله في ما يلي:-

أولا: الامتداد الزماني لمدونة الشعر المصري المعاصر في القضية موضوع الكتاب، على ما يقرب من قرن كامل أو يزيد.

ثانيًا: التنوع الفكري لشعراء الدراسة، وهو ما خلق شعورًا ممتازًا بموضوعية المعالجة ونزاهتها معًا.

ثالثًا: التنوع الجغرافي المحلي لشعراء الدراسة، وتوزعهم على الريف والحضر وهو ما جعل العينة معبرًا جدًّا عن مسار القضية الفكرية في تجليات الفكرية.

رابعًا: التنوع الفني لقصائد المدونة، وتوزعها على أنواع القصيدة المعاصرة، واستيعابها للتنوعات المذهبية الأدبية معًا.

خامسًا: الجمع بين الدرس الأدبي والنقدي، واستيعاب التقنيات من خلال اختيارات من الأسلوبية والبلاغة العربية ودراسات النقد الحديث، الإيقاع والصورة الفنية والفنون التشكيلية (اللوحات المتكاملة) ونجد ذلك.

ويبقى هذا الكتاب مؤذنًا بصوت نقدي وطني يعرف طريقه نحو خدمة العلم من منظور مهني ووطني معًا.

obeikandi.com

المقدمة

وعى الشاعر من قديم حقيقة دوره، فعاش متفاعلًا مع بيئته الحاضنة، وأمته التى ينتمي إليها، يُسَرُّ لانتصارهم وأفراحهم، ويأسى لانكسارهم وأتراحهم.. وقد كان له في أكثر الأحيان موقفُهُ الإيجابي المنسجم مع مصالح أمته وقضايا وطنه ومشكلات مجتمعه.

وقديمًا كان المدح والهجاء كلاهما، يراعي فيه الشاعرُ مصالحَ القبيلة والعشيرة، فمدح الفرزدق على زبيريته خلفاء بني أمية لمصلحة قيس قومِه.. وحديثًا كثُرَ الشعر العربي، والمصري منه خاصة في سياق نضال الوطن ضد خصومه، فكثر الشعر المصري في الإنجليز والفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.. ولما آلت الهيمنة إلى سيدة العالم، أمريكا لم يخنِ الشعراءُ أمانةَ الكلمة، كما لو يخونوا الوطن، فامتشقوا سيف الكلمة الواعية..التوعوية.. يحذرون وينبهون، وقد اجتمع من ذلك شعرٌ كثيرٌ.. مبعثرٌ.. جسَّد وفاء الشعراء لقضايا الوطن وهموم الأمة، وفوق الدور التوعوي الوطني الذي يميز هذا الشعر، فإن له من جماليات الفن ما ينأى به بعيدًا عن خطابات الساسة وكتابات المفكرين، وإن لم يخلُ في كثير من الأحيان من ومضات فكر الساسة ودقة نظرات المفكرين.. على أنه ينبغى التفطن إلى أن الحديث عن أمريكا إن يكن حديثًا عن حالة تاريخية واقعية فإن ملامسة بعض جوانبها عبر الشعر، يعنى حضورَ وافدٍ جديد هام فاعل هو رؤية الشاعر الذاتية للعلاقة أو الصراع.. ومن ثم فالموضوعية هنا نسبية ليست مطلقة. الحقيقة، الأمر الذي يجب الاحتياط له، والحذر أن يكون الشعر مصدرًا تاريخيًا وحيدًا معتمدًا.

وقد وقع اختياري على دراسة مدونة هذا الشعر لبكارة البحث وأهمية

الموضوع، وجعلت عنوان الدراسة:»تقنيات الخطاب في مدونة الشعر المصرى الحديث في الرمز الأمريكي» متخذًا سبيلًا في المنهج يجمع إلى التحليل المضموني التحليل الفنى بما يسم المنهج بالتكاملية، فإنه إذا كان صحيحًا» أن العمل الفني لا يستمد جلاله وروعته من خلال الموضوع الذي يعالجه، بل من خلال القدرة الفنية على التعبير عن هذا الموضوع.. فالأصح كذلك أن التجربة الفنية لا تنهض على الأسس الشكلية وحدها، إن المبنى في ذاته لا قيمة له من دون المعنى، وإن الاثنين لاينفصلان، وإن الشعر استعمالٌ خاص للغة، ولكن قيمة أيّ استعمال للغة، هي أن نقول شيئًا، لأن اللغة وسيلة اتصال بين الناس»[1]

وربما بالغ بعض النقاد فجعل أساس كل مقاربة محصورًا في الوجهة الفنية، غافلًا عن سوء عاقبة الفصل بين وجهي عملة الأدب، متجاهلًا لحقيقة صعوبة عزل الشكل عن المضمون»وأن انفعالاتنا ندافع بها عن قيمنا ومعتقداتنا ونصبُّ فيها أحاسيسنا ونجعل منها أداة اتصال بين قلب الفنان المبدع ووجدان المتلقي لهذا الفن»[2]

والأجمل أن يكون التوازن قائمًا في المقاربة بين الشكل والمضمون بين الرؤية والرؤيا، بين الماهية والكيفية، فيُعنى النقادُ في مثل موضوع البحث، وحين لا توجد دراساتٌ سابقة، بجانبي الإبداع، مُعظِّمًا هذا في حين على ذلك، أو ذلك على هذا في حين آخر، طبقًا لخصوصية الموضوع، بحيث « يكون حرصنا على استخلاص الظواهر العامة والقضايا والمواقف الفكرية بقدر حرصنا على معاينة الخبرات والمهارات التى يمارسها الشاعر في سبيل أن يقول ما يقول»[3]

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن موقف الشاعر المصري الحديث من الآخر متمثلًا في أمريكا برموزها كافة؛ ابتداءً من عُملتها وثقافتها أو لغتها، وحتى رمزها الرئيسي: المتمثل في الرئيس الأمريكي، متعاقبًا على اختلاف أسماء من شغلوا هذا المنصب.. كلُّ ذلك كيف كان؟ (الماهية) وكيف عبر الشاعر عن هذا الموقف إبداعيًّا وجماليًّا؟(الكيفية) وأراني الآن مطالبًا بتحديد مفهومي في البحث للرمز، لتباين دلالته

في الدراسة عنها في البحوث المختصة بالرمز والرمزية مذهبًا أو فلسفة.

والرمز بالدراسة بما هو»وسيلة إيحائية» [4] هو»علامة تعتبر ممثلة لشيءٍ آخر، ودالة عليه، فتمثله وتحل معه.. وهو كل علاقة محسوسة تذكر بشيءٍ غير حاضر، فالعلم وهو قطعة من القماش الملون، يرمز إلى الوطن والأمة، والصليب يرمز إلى المسيحية، والهلال يرمز إلى الإسلام» [5]

والرمز على هذا النحو هو كل ما يشير إلى أمريكا، لغة أو فكرًا، مدينة أو مَعلمًا، رئيسًا أو مؤسسة، والحق أن الرمز الأمريكى الأكثر حضورًا بمدونة [6] الشعر المصري، هو الرئيس الأمريكي، بما هو رمز الدولة الأكبر، وتمثَّل هذا الحضور بذكر اسمه في حين بثنايا شعر المدونة رامزًا إلى أمة أمريكا، وأكثر ما يكون هذا الحضور، أن يخاطب الشاعرُ المصريُّ رئيسًا أمريكيًا بعينه في قالب الرسالة الشعرية[7] يكشف فيها عما شاهده الشاعرُ مما اقترفته يدُ الرمز.

وقد جعلتُ البحث، انطلاقًا من طبيعته في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

أما المقدمة فعن فكرة الموضوع، وأهميته والدراسات السابقة.

وأما التمهيد فيعرض للحضور الأمريكي في ثنايا الشعر المصري الحديث ضمن موضوعات أخرى مهيمنة بحيث بدا الرمز الأمريكيُّ في أكثر الأحيان جزءًا من كلٍّ أو أداةً فنية، يستثمرها الشاعر لاستكمال ملامح موضوعه الرئيس، ويختص شعر هذا التمهيد بمرحلة زمنية لم تكن فيها أمريكا قطبَ العالم الأوحدَ، وكان وجهها الحضاري المضيءُ حينذاك أوضح من وجهها السياسي العسكري المُفْنِي.

والفصل الأول بعنوان: ماهية أمريكا.. صورةٌ شعريةٌ، ويعنى بالإجابة عن سؤال، كيف رأى الشعراء أمريكا؟

والفصل الثانى بعنوان: التقنيات الشعرية في فن خطاب الآخر الأمريكي، ويُعنى بالكيفية التى عبَّرَ بها شعراء مصر عن أمريكا.

وبالخاتمة أهم النتائج والتوصيات.

أما الدراسات السابقة في الموضوع، فأكاد أجزم أنه ليس في المكتبة العربية- فيما أعلم- من تناول الموضوع على النحو الوارد- هنا- من قبل. ولا يدَّعي الباحثُ لنفسه الريادة زورًا، ولا الشجاعة بهتانًا، فقد التمعت فكرة هذا البحث، حينما اعتزمت الهيئة العامة لقصور الثقافة، ممثلةً في إقليم القاهرة الكبرى عقدَ مؤتمر اليوم الواحد لعام 2009، وجعلت عنوانه:»أدب الغضب» فشاركتُ فيه ببحث كان عنوانه:»الرمز الأمريكي في الشعر المصرى الحديث دراسة في آليات أدب الغضب»[8] وكان صلب البحث معتمدًا على قصيدتين، هما: «رسالة من أب مصري إلى الرئيس ترومان» لعبد الرحمن الشرقاوى، «فى وداع بوش» لفاروق جويدة.

وما زالت الأيام تتوالى هادئة.. تنمو بمادة البحث وتتطور بفكرته، وبفعِل الانشغال بالفكرة حتى زادت النصوصُ الداخلة في صلب الدراسة- عدا ما لامسها من قريب إلى اثنيْ عشر نصًا كاملًا، بخلاف ديوانين خلصا بكاملهما للرمز الأمريكي هما: «محاكمة أمريكا» للشاعر محمد الجيار، و»فى وصف أمريكا» للشاعر الدكتور أحمد تيمور.

وقد مثلت تلك المادة المتكاثرة.. المتناثرة أولى صعوبات البحث؛ إذ تطلب الوقوع عليها زمانًا وجهدًا وصبرًا، ومعاودة كتابة، وكثرة تعديل وإضافة، عن قبول ورضًا، وتمثلت ثاني الصعوبات في تصنيف مسائل البحث وتصميمه، هل يُعتمد الموضوع هو المعيار، فتقسم المادة على الخطاب الشعري للرئيس، أوالخطاب الشعرى الحضارى والحضري؟ أم تُصنف المادة بحسب المنحى الفكري للشاعر، ما بين يساريّ (الشرقاوى والجيار) واسلاميّ (جابر قميحة ووحيد الدهشان)، وإنساني قومي (فاروق جويدة وأحمد هيكل) وانتهيتُ إلى عدم جدوى التقسيمات السابقة.. على أن المنهج التكاملي سينأى بسلبيات هذه التقسيمات بعيدًا مع ضرورة العناية بالجانبين الموضوعي والفني، وهو ما بدا واضحًا في فصلي البحث، وتمثلت

الصعوبة الثالثة في انعدام الدراسات المثيلة أو المقاربة، وإن لم يعدم الباحث صوىً هاديات، تُلامس من بعيدٍ موضوعَ البحث دون أن تشارك في صنع الفكرة؛ إذ وقعت يدي على هذه الصوى متأخرًا، وليست على أية حالٍ وثيقة الصلة- في مجملها- بالموضوع، وبقدر من التسامح والأريحية يمكن أن يكون من ذلك:

صورة الآخر في الشعر العربي الحديث للدكتور فوزي عيسي [9] وتقع الدراسة في 480 صفحة، في قسمين تسبقهما مقدمةٌ وتتبعهما خاتمة، والقسم الأول عن حضور الآخر في الشعر القديم، والثاني عن حضور الآخر في الشعر الحديث، وفيه عرض لصورة الغرب في شعر شوقي، وصورة الآخر في شعري أبي ريشة وإبراهيم العريض، وفى مقدمته أكد على قلة الدراسات المعنية بحضور الآخر في الشعر العربي، فقال:

« لم تحظ صورة «الآخر» في الشعر العربي بدراسات وافية بالرغم من أهميتها، وظلت هذه الصورة يكتنفها الغموض والتعتيم لاسيما أن مفهوم الآخر ذاته يثير كثيرًا من الجدل ويسمح بالاختلاف حوله ويبدو في نظر الكثيرين غيرَ محدد على نحو دقيق» [10]

ومفهومه للآخر متسع جدًا، ولا يشمل أمريكا بحالٍ، ويكاد يعنى به الفرس والروم والترك قديمًا، وأوروبا وإسرائيل حديثًا.. يقول:» إن مفهوم الآخر- من وجهة نظرنا-.. نعنى به الأجنبي المضاد للذات العربية والذى فرضت الظروف السياسية والاجتماعية والجغرافية والحضارية أن يكون هناك اتصال وتماسٌ وعلاقات وجوار بين الطرفين» وانتهى الدكتور فوزي عيسي في دراسته الجادة والمعمقة إلى أن الموقف العام من الآخر في الشعر العربي» ينطلق من الرفض ويعكس توجه الوجدان الجمعي للأمة العربية» [11]

obeikandl.com

تمهيد

قديمًا حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة أنه قال:

«كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قومٌ وجرير إذا غضب» [1]

واللافت أن جميع حالات الإبداع الكافية والكافَّة عن غيرهم تتصل بالآخر.. أيّ آخر.. فالرغبة والرهبة والطرب والكلَبُ والغضب، لا تكون إلا متصلة بالآخر، فيه أو منه أو له أو بسببه أو عليه.

هذا الآخر قد يكون فاضلًا محبوبًا، فيرغب فيه، وقد يكون قويًا متغرطسًا فيُرهَب أو يرغب عنه، وقد يكون جميلًا عظيمًا.. إنسانًا فيطرب به، وقد يكون عدوًا حاقدًا فيُكلَب عليه، ويغضب منه..

والحق أن فهم الشاعر لذاته وتأسيسًا على ما حكاه الأصمعي من قديم يمرُّ دائمًا عبر فهمه للآخر الذى لم يكن إلا نظيرًا أو نقيضًا أو مختلفًا، وفى وسعنا حقا «مشاركة تيرى هنتش ما ذهب إليه في قوله: يمر فهمنا لذاتنا عبر فهمنا للآخر»[2]

وإذا كان ذلك حقًا فيما مضى، فهو الحق الصراح الآن، فما يملك أحدٌ أن يماري فيه في ظل سياسة العولمة أو الانفتاح الشامل الذى يعم الأرض، إعلاميًّا واقتصاديًا وسياسيًا، والسعي إلى فهم الآخر كما هو خطوة ضرورية وحضارية.. مثمرة، فيها كل الخير، فإضافة إلى أن إدراك الآخر جزءٌ من إدراكنا لذاتنا شريطة أن يكون إدراكنا له كما هو وليس كما نريد، أو كما يُراد لنا أن نريد، ف « إن تصوره وفهمه يطرح الآليات الصحيحة للتعامل معه، والتوجه إليه من مبدأ

التعارف الإنساني المتبادل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات: 13) وعند ذاك تتقدم المحبة على الكراهية، والانفتاح على الانغلاق، والتكامل على التنافر، والتحالف على الصدام» [3]

والفترة التى يمرُّ بها الكون الآن يحكمها ضمن ما يحكمها مفهوم الهيمنة الأمريكية [4] فبعد انتهاء الحرب الكونية الثانية العظمى، بدت أمريكا إمبراطورية قد ورثت عن إنجلترا وفرنسا ما كانتا تتمتعان به من سيطرة وهيمنة وعدوان واستعمار.. وليس هناك على الكوكب الأرضي الآن موضع قدم أو حدث أو زعيم أو ظاهرة كبرى اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، إلا ولأمريكا صلةٌ ما بهذا أو ذاك على نحو من الأنحاء.

إن القطب الأوحد الأمريكي متربعٌ منفردٌ على عرش الأرض، بعد انهيار إمبراطورية الدب الأحمر في مطلع تسعينيات القرن المنصرم.. وللعرب قضيتهم الأولى التى يرتهن أمرُ حلها من الوجهة السياسية بالقرار الأمريكي شاء من شاء وأبي من أبي، وقد بات الحضور الأمريكي في شتى مناحي الحياة ملبسًا ومطعمًا وفكرًا قدرًا محتومًا، ابتداءً من الجينز والكنتاكي وأفلام هوليود، ناهيك عن حضورها الطاغي في عالم الاقتصاد والإعلام وصناعة الزعامات فضلًا عن السياسة والحرب.

وقد حاول بعض الراغبين في النجاة أو الحظوة إبعاد الفن والأدب عن التطرق إلى السياسة وقضايا الأمة باعتبار ذلك ترفًا، ساقهم إلى حد القول» بأن الأديب منفصم الشخصية، فالمواطن فيه سياسي كغيره من المواطنين، وأما الفنان فيه فلا علاقة له بالسياسة، وهو تبسيط مُخِلٌّ لأقصى حدود الفكر الأدبي» [5]

والحق أن هذه الحيادية المزعومة خاصة في اللحظات المصيرية التى تستجمع

فيها كلُّ أمة كافة مقدراتها للصمود والمواجهة حيادية مرفوضة، لا يرفع رايتها إلا مستسلمٌ أو غافل أو مأجور.. وقد نعى الشاعر الحديث نجيب سرور هذه الحيادية، واستخف بمن زعمها فقال مستهزئًا:

«ماذا على الشعراء لو لزموا الحيادْ
فى زحمة الألوان ظلُّوا كالرمادْ
كالماء لا لَوْنَ لهمْ/ وليذهبِ الشيطانُ بالألوان طُرًّا
فالشعر شيءٌ.. والسياسةُ/ شيءٌ سواه
كالماء والقطران من حيث الكثافةُ/ يالسخافةِ/ مَنْ قال هذا؟» (6)

والشعراء من قديم وكما يرى الطبري «هم ذوو الرأي في قبائلهم، ينبهونهم عند الملمات، ويستعينون بهم وقت الشدائد، ويلجئون إليهم في الحروب، فقد ورد أن سعدًا أرسل يوم (أرماث) إلى ذوى الكلام من رجال الشعر والنثر يدعوهم إلى استخدام أسلحة الحرب» (7).

ومما يُحمد لشعراء المدونة، أنهم لم ينخدعوا لدعوة الحياد، بل انحازوا عن وعي دقيق ووطنية صادقة، وبإبداع راقٍ، وفنٍّ باقٍ لقضايا الأمة.. وهو الأمر الذى يكبره كلُّ سويٍّ في كل واحد منهم « لو هو ظل ملتزمًا هذا الصدق دون خوف أو نفاق أو تردد،.. وبقدر تمسك الشاعر بموقفه بقدر ما يسجل له التاريخ شجاعته وعزته وقدرته على التضحية بكل أطماع ومباهج الحياة الزائفة من أجل الكلمة والموقف» (8)

وقد تجمع من هذا الشعر المصرى في أمريكا برموزها المتعددة شعرٌ كثيرٌ، يمكن أن يُشَكِّلَ بعد جمعه من مظانِّه المتباعدة زمانًا وباعثًا، ومنحىً أسلوبيًا مدونةً شعريةً حديثةً، تمسك باللحظة التاريخية المصيرية فترفع أقوامًا وتخفض آخرين.

والمنادون بحيادية الشعر آنئذٍ، إنما يحرمون الأمةَ قصدًا أو غفلة ضوءَ مشعل

هادٍ فاعل، يمكنه أن يسهم في التنوير وتشكيل الوعى»فغاية الشعر هى إنارة عقل هذا الإنسان وإثراء حساسيته ومساعدته على إدراكٍ صحيح للحياة وإلهاب شوقه لأن تسود قيم الحق والخير والجمال» [9] كما يحرمونها جهدَ مصلح، إن أتيحت له حرية كافية.. كان سهمًا على الأعداء، ودواء للأولياء، فالثابت أن شهوة الإصلاح تتلبَّث الشاعر كما الفيلسوف، ف « إن شهوة إصلاح العالم هي القوة الدافعة في حياة الفيلسوف والنبي والشاعر؛ لأن كلًا منهم يرى النقص فلا يحاول أن يخدع عنه نفسه، بل يجهد في أن يرى وسيلة لإصلاحه ويجعل دأبه أن يبشر بها.. (و) الشعراء يعرفون أن سبيلهم هى سبيل الانفعال والوجدان وأن خطابهم يتجه إلى القلوب» [10]

وعلى الفن يقع عبءٌ كبيرٌ في استكناه الواقع» وفى قيادته إلى المصير المقرر، وليس دوره مجرد رصد الأحداث، تاريخية كانت أو معاصرة» [11]

ومما أراني الآن في حاجة إلى التأكيد عليه أنه ليس أحد ضد قيم الإنسانية الكبرى، كالحق والعدل والخير والجمال والتسامح والتعاون، كما أنه ليس سوىٌّ يخنع للعدوان أو الطغيان أو العنصرية أو التعصُّب أوالبغضاء، وكما أن لأمريكا مثالبَ فلها فضائل، وبقدر الإعجاب المستحق بالوجه الحضاري لأمريكا، فالرفض المستحق أيضًا للوجه الإمبريالى كان هو موقف أكثرية الشعراء.. الأسوياء الأوفياء.

وحالما طغى الوجه الحضاري كان التماهي والانبهار التام هو موقف الشعراء، وحينما أسفرت آلة الحرب عن وجهها البشع كان الرفض وكانت المواجهة.. [12]

وقد مثل شعراء مصر المحدثون هذه المواقف المتباينة تمثيلًا صادقًا، فعرت مواقفَهم تحولاتٌ تدور وفق ما طرأ على الواقع الأمريكي من تحولات.. وحينما كانت علاقة الأمريكان بمصر محصورة بالسياحة، يأتيها الأمريكان سائحين ليستمتعوا.. بجو مصر المثالي، إذ هى وستبقى بعون الله.. شمس الحضارة..

ودفء العشيرة.. وسلام الوفادة، حين ذاك كان الودُّ والتسامحُ والتماهى.

وربما كانت إشارة على الليثى (1230 ه – 1313 ه) قبل أكثر من مائة عام في وصف سائحة أمريكية زارته في ضيعته ببلدة «الصف» أقدم إشارة تنتمي إلى المدونة، وفيها يبدو الليثى مُرحبًا مُمْتنًا مُبتهجًا بجمال الأمريكية البُوسْتَنِيَّة « ولم تقف اللغة حائلًا بين الشاعر والآخر.. إذ للجمال دهشته، وللانبهار غفلته! يقول:

وزائرةٍ زارت على غير موعدٍ ... غريبةَ دار تنتحى كلَّ موردِ

تُبدى لنا وقت الظهيرة نورَها ... ونحن على روضٍ زها بالتورُّد

من اللاءِ لم يدخلن مصر لحاجةٍ ... سوى رؤية الآثار في كل مشهد

لها في أميريكا انتساب ودارُها ... ببُستانَ، إذ تُعزى لمسقط مولدِ

فحيَّتْ وقالت والمترجمُ بيننا ... لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندى

فقلنا ونورُ البشر أزهرُ بيننا ... على الرحب والإقبال مشكورةَ اليد«[13]

براءة الآخر كانت قائمة بالفعل، ولذا فلا عجب أن يكون موقف شعرائنا حينذاك هو الترحيب بل والإعجاب والتقدير. وتدل عبارة «مشكورة اليد» على حالة الانبهار بالآخر.. التى تلبَّست بعض شعرائنا قديمًا، ويبدو أن المرأة الأمريكية لجمالها السافر، قد خضعت لها أفئدةُ غيرِ واحد من شعراء مصر المعاصرين، على نحو ما نجد عند صالح جودت في «ألحان مصرية» متحدثًا عن زيارته ل «سان فرانسيسكو»، إذ يقول في قصيدته «ليلة في عمر الخيام»:

« قد تقاربن شبابًا وتخالفن جناسًا

فترى مخلوطةَ الألوانِ سمراءَ خلاسا

وترى صينية/ ثم إفريقية/ ثم إيطالية/ ثم أمريكية» [14]

واللافت أن شعراء مصر الكبار في مطلع العصر الحديث قبل الثورة اتخذوا موقف المهادنة لا المواجهة، تكيُّفًا مع الموقف الرسمي للملك من أمريكا، فاستمر الانبهار بكل ما تأتيه أمريكا من أفعال قامت بها مطلع القرن كتعليم البنات.. ففى ديوان حافظ إبراهيم، قصيدة « كلية البنات الأمريكية» وقد «قالها في الحفل الذى أقامته الكلية لتوزيع الشهادات والجوائز على الفائزات ونشرت في 26، مايو 1928م»يقول في مطلعها: [15]

أيْ رجالَ الدنيا الجديدة مَهلا ... قد شأَوْتُم بالمعجزاتِ الرجالا

وفهمتم معنى الحياة فأرصدْ ... تُم عليها لكل نقصٍ كمالا

وحرصتم على العقول فحرَّم ... تُم عصيرًا يراه قوم حلالا

والحق أن مشروع تجريم الخمر في أمريكا في حينه، قد فشل بعد إنفاقات مالية فيدرالية ضخمة، وهى على أية حالٍ ليست مما يتباهى به مسلمٌ، إذ حرمها بمنهجٍ تدريجيٍّ حكيم فامَّحى أثرها دون كلفة، حينما تعهد الوحىُّ الوازعَ من داخل.. أما إعجاب الشاعر بمنجزات أمريكا الحضارية فمقبول منطقى إجمالًا كما في قوله:

قد تحديتُمُ المنيةَ حتى ... همَّ أن يغلب البقاءُ الزوالا

وطويتم فراسخ الأرض طيًّا ... ومشيتم على الهواء اختيالا

ثم سخَّرتم الرياح فسُستم ... حيث شئتم جنوبَها والشمالا

تسرجون الهواءَ إن رمتم السي ... ر وفى الأرض من يشد الرِّحالا

وتخذتم موج الأثير بريدًا ... حين خلتم أن البروق كسالى

ثم حاولتمُ الكلامَ مع النجْـ ... ـمِ فحملتمُ الشعاع مقالا

ثم يحكى عن التقدم التقنى الأمريكي في صناعة السيارات، والتنقيب عن المعادن والتطاول في البنيان فيقول:

ومحا (فوردُ) آيةَ المشيِ حتى شرع الناسُ ينبذون النِّعَالا
وانتزعتم من كلِّ شبرٍ بظهر ال أرضِ أو بطنِها المحجبِ مالا
وأقمتم في كل أرض صُروحًا تنطح السحبَ شامخاتٍ طوالا

ويشيد بالتقدم العلمي والإحاطة بأساليب التربية الحديثة للنشء فيقول:

وغرستم للعلم روضا أنيقًا فوق دنيا الورى يمدُّ الظِّلالا
وحللتمْ بأرضنا فعرفنا كيف تُنْمون بيننا الأطفالا
ورأينا البنات كيف يثَقَّفْ ن بعلم يزيدهن جمالا

وهو يعلن متمنيًا مالم يتحقق بعد، وكاشفًا في الآن ذاته عن تماهي الحضاري بالآخر، بما يشكل لحظة استلاب وعى، إن حاق بالشعراء آلَ بأمتهم إلى مرتعٍ وخيمٍ من التبعية والتقدم.. يقول:

ليت شعرى متى أرى أرضَ مصرٍ فى حمى الله تُنبت الأبطالا
وأرى أهلها يُباورنكم عِلمًا ووثبًا إلى العُلا ونضالا

أما أمير الشعراء فقد خاطب الرئيس الأمريكي «تيودور روزفلت» الكبير[16] في طريق عودته من السودان إلى مصر بقصيدته (أنس الوجود) عندما زار مصر في مارس 1919 على نحوٍ مغايرٍ إلى حدٍّ ما، إذ الأمير معتزٌ بآثار وطنه، لكنه لم يعترض أو يتطرق في شعره إلى تمجيد روزفلت للاحتلال أو معارضته لحركة المطالبة الدستور، فجاء شعر الأمير باهتًا من نوع وطنية منزوعة الدسم، وخطابية تشدو بعيدًا عن الميدان.. يقول لروزفلت:

أيها المنتحى بأسوان دارا هل نسيتم ولاءنا والودادا [17]

غير أنه وحينما انحازت أمريكا لإسرائيل في حربها ضد الوطن والأمة.. وتوافق الجميع أمراءُ وشعراءُ على عدوانية أمريكا، سهل على الشعراء أن يعلنوا عن بعض ما يعتقدون، وأن يروا أمريكا وإسرائيل في شعرهم صديقين حميمين وحليفين أبديين على مصر [18] وهو الأمر الذى يصعِّبُ المعادلة.. وربما يبرر الهزيمة.. إلى هذا يشير عبد اللطيف النشار؛ فيقول:

نحاربُ أمريكا ويزعمُ زاعمٌ بأن يهودًا حاربوا وتفوَّقُوا

سواءٌ لدينا هذه مثلُ هذه ومؤمنُنا عند الجهاد موفَّقُ[19]

وقد بدا أن الوعى بحقيقة الأعداء سمة الشعراء الرواد ومنهم محمود غنيم، الذى أمسك في شعره باللحظة التاريخية الراهنة، وأن إسرائيل صنيعة وعد بلفور ولقيطة التواطئ البريطاني، فهو في شعره يكشف رمزيًا وجماليًا عن احتضان انجلترا لوليدِ السِّفاحِ (إسرائيل) تلك التى (تحرَّشت) بسيدة البحار.. ويتنبؤ أنها سوف يطال عدوانُها أمريكا مستقبلًا.. يقول:

من سمَّن الكلبَ أمسى منه معقورًا ياجيرة «المنشِ» هذا كلبُ بلفورا

الذنبُ ذنبكمُ والكلبُ كلبكمو ما زال يسمن حتى بات مسعورا

عضَّ اليمين التى كم أطعمت فمَهُ وكم سقتْه النميرَ العذب مقطورا

وسوف يعقر أمريكا بفيه غدًا إن لم تُعدوا له قيدًا وساجورا

وسوف ينبحُ من لاقى ويجرحه ما دام يَلقى له نابًا وأُظفورا [20]

ثم هو يكشف عن انحياز أمريكا الواضح ضد حقوق الأمة في قصيدته (فى مهرجان الجزائر) فيقول:

لـــلــه درُّ فــتــى الــعــرو   بــةِ يــاســرٌ ورجـــالُ يــاسرْ
لا تـطـلـبـوا الإنـصـاف من   قـــاضٍ بـواشـطـنـونَ جائر
لا تـبـسـطـوا الأعـــذار ما   فى الـنـاسِ للمغلوبِ عاذر
الـــنـــاسُ أنـــصـــار الـقـوىِّ   ولـيـس لـلـضـعـفـاءِ ناصر
لا تُـوسـعـوا الأقـــدارَ لـوْ   مًا أو تقولوا الجدُّ عاثر (21)

ويعرِّض الشاعر على الجندي بالرموز الأمريكية في رئيسيها: « ويلسِون، جونسون» وفى أسطولها السادس بالبحر المتوسط، في ديوانه (فى ظلال القمر) فيقول:

إلـــى الـمـيـدان لا تخشوْا   بـــه عُـــــددا ولا عَــــددا
ولا هـــذيـــان مـــن بـاتــوا   لـكـيـدِ الـمُـعـتـدى سـنـدا
... ولا مـــا قـــال ويـلـسـونٌ   يُـحـابـى الـــزور والـفـنَـدا
ولا أطـــيـــار جُـونـســونٍ   تـحـوم بـأفـقـهـم رصـــدا
ولا أســطــولــه الـســاد   سَ فــي الـرومـىِّ مُحتشدا
لـقـد خـابـت مـسـاعـيـه   وحـــلَّ الـلـــهَ مــا عـقـدا
سـيـجـنـى إثــم فـعـلـتـه   ويلقى حـتـفَـهُ كـمَـدا (22)

واقتراب الشاعر من السلطان يمنعه أن يصدع بحقٍ إذا علمه، فالحسابات إذاك معقدة، والمصالح والمكاسب الشخصية لها حضورُها المرُّ الآمرُ، فما يستطيع الشاعر فكاكًا من الوفاء بكُلفة صحبةِ البلاط.. هذا دائم في حق الشعراء الكبار ممن يحالفون السلطان، أما المغمورون فهم لسان حال الجماهير، ليس لأحدٍ عليهم فضلٌ، هم يتسمون بالحرية في قول ما يعتقدون.. ومن هؤلاء المغمورين في الأرض من الشعراء ممن صدحوا بما يؤمنون به، وعبروا عن غضبة الجماهير

الشاعر «كامل أمين»، إذ يكشف عن انخداع بعض الساسة بحيل الآخر، والتطبيل له، كما يكشف عن الوجه العدواني الإمبريالي المستكن فيه، مجددًا آلام حروب العهد الحاقد البائد.. يقول:

جاء مشروعُ الفتى أيزنهورْ ... جاء مشروع النبيِّ المنتظرْ
وفتى المشروع « دونْ كِيشُوت» ... مثل «سجيع» السينما راعى البقر
يقذفُ المشروعَ كالحبل على ... صيدِهِ إن كان خيلًا أم بقر
أو حكومات عرفناها كما ... تُعرف المومس من جو البؤَرْ
..السجيعُ الفارس المغوار جاء ... من (تِكْساسَ) كى يغزو القدر
بصقتْ في وجهه السودانُ والصِّيد ... فى (لبنان).. في الماء العكِر
وبقى اللعب على (الأردن) يا ... يالويسَ الأردن السادس عشر[23]

ومن الشعراء الذين انحازوا لأمتهم فصدعوا بالحق، الشاعر الأكاديمي «حسين على محمد»، ففى ديوانه «المتنبي يشرب القوة في فندق الرشيد».. يقول في قصيدته «مرثية بغداد» معرضًا بالجبناء:

أنعى لكم بغداد..
وتسمعون صوتها الجريحَ كلَّ لحظةٍ فترسمونَ
فوق وجهِكُمْ ملامحَ السُّهادْ/ لكنكم في كل ليلة – في العُهْرِ– تسهرونْ
وتتركون صوتها يضيعُ في الصحْراءِ تعبسون
من أجل بوشٍ الصغيرِ إن عَطَسْ» [24]

ومن الشعراء المعاصرين الذين وقعوا على الحقيقة وجهروا بها شعرًا خالصًا لله والوطن الشاعر «عصام الغزالى»، الذى آمن بقدسية الشعر، وأنه لا يمكن أن

يخون أمته، أو أن يشجع على الفساد أو التبعية أو الخيانة.. فالشعر عنده يدٌ تبني المجد، أو يدٌ تصفع النَّدْل، يقول قارنًا بين يهود والأمريكان:

والشعرُ ما أعطى اليهود ديارنَا والأمْرِكانْ
والشعر ما فتح المدينة للجرادِّ وللدخَانْ
والشعر ما مدَّ القروض لكل لص أُلعبان
والشعر لم يحرق قطار العيد عند المزلقان [25]

وهو الذى يرى أن فساد بنى الجلدة أفظع في ويلاته على الأمة من كذب الأعداء وغدِرهم.. يقول:

أنـا قـد أُصَـدِّقُ كـذبَ بـوشٍ ولا أصـدق هـؤلاء
الـكـاذبـيـن عـلـى الـعـبـاد مـن الـصـبـاح إلـى المساء
مـن عـلَّـمـوا الـنـاس النِّفا قَ لمن أخـاف ومـن أسـاء
بـالـروح والـدم نفتديك وهـكـذا الأمـم الـغُـثـاء [26]

وقد آمن بعضُ شعراءَ أن أمريكا عقبةً كأداء في طريق نهوض الأمة، وأنه لن تنقشع الغمة إلا بتعزيز الهوية، والاستقلال، والعزة، ومقاومة ظاهرة الاستلاب والتماهي مع الآخر، يقول الدكتور سيد العفاني، كاشفًاعن هويته الكريمة الأبية المترفعة:

أنا جوادٌ عصيٌّ لا يطوِّعه بوحُ العناقيد أو عطرُ الهُنَيهات
أثبتُ أركضُ والصحراء تتبعنى وأحرفُ الرمل تجرى بين خطواتى
أثبُتُ أَنْتعلُ الآفاقَ أمنحها جرحى وأبحث فيها عن بداياتى [27]

ثم يعلن عن إيمانه بالأمل في غدٍ مشرق تتبدل فيه الأحوال.. فيقول:

فإذا ترين أمركا أن في غدِنا عرسَ الليالى وأفراحَ السمواتِ
وهل علمتَ بنيران مؤجَّجةٍ ومارِدٍ يحتويه الموسمُ الآتى

لقد اتخذ الشعراءُ في أكثر الأحيان الموقف الإيجابي الذى يقتضيه الوازعُ الإنسانى حينًا، والواجبُ الوطني أحيانًا، فتسامحوا مع المتسامحين، وهادنوا السلميين، كما في نص الليثى والجندى، فلما انكشف وجه العداء سافرًا، أعلن الشعراءُ المواجهة، وفضحوا غدر الآخر وخيانته وتعصبه وعنصريته في أدبٍ راقٍ جماليٍّ، بعيدٍ عن الخطابية أو المباشرية، فوفَّوْا أمتهم حقَّها كاملًا من إبداعهم، وكفوا أنفسهم مذمة التاريخ وغضبة الإنسان.

obeikandl.com